فكاهات

رواية

الغاية لا تبرّئ الواسطة[1]

حدث في آخر الحروب التي شبَّت نارها بين جنود الدولة الاسبانية الحاضرة وأنصار الدون كارلوس المطالب بعرش اسبانيا أنَّ فتىً يدعى جوان أراكويل عشق فتاةً تدعى بيبا ابنة رجل اسمهُ شيغاراي قاطن بين قرية هرناني وقلعة سنتا بربارة وكان هذا الرجل من كبار الزراع في تلك الناحية ولهُ اربع او خمس مزارع خصيبة فيها من شجر التفاح شيءٌ كثير يرى في إبان الثمر رازحاً تحت احمالٍ من هذه الفاكهة كانها عناقيد من نهود الحسان او كأَسَ شربةٍ وقفنَ بلا اوان . وكانت ابنتهُ المشار اليها فتاةً رائعة الحسن بابلية الالحاظ سحارة الحركات والالفاظ

خطَّت يد الحسن في مصقول جبهتها سطراً ملخصهُ سبحان من خلقا

وكان الفتى الذي تعشقها مقيماً في بلدة تدعى لويولا قريبة من تلك الناحية وهو شابٌّ يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة طويل القامة بهيّ الطلعة وقد رأى الفتاة ذات يومٍ فأحبها وحلت منهُ محلَّ مهجتهِ واخذ يتردد عليها الى ان تمكنت روابط الود بينهُ وبينها ثم خطبها من ابيها فاجابهُ

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم خليل افندي الجاويش

ما كنت لأمنعها منك لولا انك رجلٌ فقير لا تصلح لابنتي . فقال لهُ وهل يمنع فقري من تزوجي بها وهي قد صرحت لي بانها تهواني ولا تميل الى سواي . فقال الوالد انها اخبرتني بذلك ولكن الفتاة يجب ان تطيع والدها ولا سيما في امرٍ يتعلق بمستقبل حياتها . فقال جوان لقد صرت مجنوناً بحبها وصارت هي معبودي فاذا لم تعطني اياها قتلت نفسي فما الذي يجب عليَّ ان افعلهُ لاحصل عليها . قال افعل كما فعلت انا اي اعمل واكتسب ما يقوم بحاجات زوجٍ وزوجة ويكفل بتربية بنين وبنات ولا تطمعنَّ في مالي اذا تزوجت ابنتي فاني لم اقضِ حياتي في الدأب والنَصَب لاعطي ما جمعتهُ من المال بكدّ يديّ لرجلٍ لم يتعب ولا مال عندهُ يغنيهِ عن مالي ولا هو ذو حرفةٍ ولا منصب وليس لهُ من عملٍ سوى الجولان في الساحات فكيف يجوز لي وتلك حالك ان ازوجك بابنتي واعطيك فوقها مالي اسيء امتعك بمال وجمال وانت وادعٌ مستريح . فاذا جئتني بعد مدة وقلت لي اني قد جمعت من المال ما اتمكن بهِ من فتح بيتٍ زوّجتك بابنتي لانها تحبك ولم ابخل عليك بها لان الفتاة مصيرها الى الزواج وتزويجها بمن تحبهُ اضمن لراحتها واهنأ لعيشتها . فقال جوان وكم هو المال الذي ينبغي لي ان احوزهُ لاصير اهلاً للزواج . فاجاب والد الفتاة الفا دورو (عشرة آلاف فرنك) فانقبض وجه الفتى وقال هذا قدر كبير فانَّى لي ان احصل عليهِ وكيف السبيل للوصول اليهِ . فاجاب الوالد من جدّ وجد اما انا فقد جمعت ثروتي من تراب الارض فقتش تجد واطلب تنل ومن سعى رعى . فانصرف الشاب وهو موقنٌ بان امامهُ احد امرين اما ان يقتل نفسهُ ليخلص من

عذاب الحب واما ان يحرث الارض للحصول على المال المطلوب وبغير ذلك لا يحصل على حبيبتهِ لانها لا تعصي والدها ووالدها من الذين لا ينقضون قولاً ولا عزماً ولكن بما ان الفتاة تهواهُ وتستميت في حبهِ فهي ولا شك تنتظرهُ ريثما يحرز المهر لانها باحت لهُ في مواعدهما الخفية وفي احاديثهما امام والدها بانها تحبهُ حباً لا ينزعهُ من صدرها سوى الموت بل قد اقسمت لهُ انها لن تقترن باحد اذا لم يتسنَّ لها الاقتران بهِ . فشدد هذا القَسَم عزيمتهُ وحملهُ على ركوب الاخطار لتحصيل ثمن الحبيبة على ما قال والدها والعشق يحوّل الجبان شجاعاً وينفخ في صدر الكَسل روحاً يصيرهُ هماماً مقداماً فكيف اذا كان العاشق كهذا الفتى جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً

وذلك أن جوان اراكويل هذا كان في طليعة الشبان الموصوفين بالبسالة والاقدام في ميادين المصارعة على حسب عادة القوم فكان اذا قاتل ثوراً قتلهُ بطعنة واحدة واذا خاض غمار مشاجرة جندل عدوّهُ فالقاهُ مضرجاً بدمآئهِ واذا اقدم على امرٍ عظيم وضع روحهُ على كفهِ وباعها بارخص الاثمان في مواقف الهلاك والتلف وكانت هيئتهُ تدلّ على الفروسية والنخوة وقامتهُ قامة جبار يخيف منظرهُ ووجههُ حاوياً ألطف معاني الجمال في الرجل ويداهُ شبيهتين بيدي امرأةٍ ناعمة مهفهفة ومورد معاشهِ من رهانٍ يربحهُ في مصارعة الثيران او مقارعة الابطال في ميادين بلباو وتولوزا وسلاحهُ السكين والخنجر ولسان حالهِ ينشد على الدوام « انا ابن جلا وطلاع الثنايا »

وحدث ذات يومٍ في مدينة سان سيبستيان أن بطل الميدان عجز

عن قتل ثورٍ ضخم كان يصارعهُ فجعل جوان يصفر استهزآءً بالمصارع ويهزّ كتفيه استخفافاً بهِ فصاح بهِ الحضور هلمّ الى المترَك ان كنت فتىً. فلم يحجم دقيقةً واحدة بل نهض وحيّاً وتناول السيف من المصارع ووقف امام الثور وحدّق اليهِ ضاحكاً ساخراً ثم بادرهُ بطعنةٍ في عنقهِ فخرّ قتيلاً ودمهُ يتدفق كانهُ من فم قربة ثم التفت الى القوم فحيّاً وانقلب راجعاً بين الهتاف والتصفيق. فاستشاط المصارع وزملآؤهُ غيظاً واحاطوا بهِ وهم يضمرون لهُ سوءاً فقفز كالغزال من فوق رأس احدهم ورجع الى مكانهِ تاركاً حلقتهم كما كانت وهم ينظرون اليهِ مبهوتين كأن صاعقةً نزلت عليهم فهدّت قواهم وحلت قوائمهم . ولما كان المسآء شاجر احدهم ورآء الميدان فطعنهُ هذا بسكينٍ في صدرهِ فحملوهُ الى منزلهِ حيث بقي خمسة عشر يوماً يعالج من جرحهِ وآلى على نفسهِ وهو في فراشهِ أن لا بدّ لهُ من قتل ثورٍ ومصارعٍ معاً وهكذا شأن هؤلآء الناس في اسبانيا لا يكاد جرحهم يلتئم بعد ان اصبح الموت منهم اقرب من حبل الوريد حتى تراهم بعد شهر في الميدان وفي اليد الواحدة راية الصراع وفي الاخرى سيف النزال وكان جوان من طينتهم وان لم يكن من ارباب حرفتهم. وكان عندهُ ايضاً ادويةٌ ومراهم للجراح يتخذها من اعشاب الجبال وفي جملتها دوآءٌ سامٌّ وضعهُ في خاتم باصبعهِ حتى اذا وقع في خطر او تعرض للعطب قتل نفسهُ بيدهِ في لحظة لان الانسان في رأيهِ يجب ان يكون مالكاً زمام حياتهِ على الدوام يقطع حبلها متى اراد ويلقي منيتهُ انى شآء

وفي تلك الاثنآء كانت الحرب قد اضطرم سعيرها واحتدم شواظها

وكان كلما برز الدون كارلوس في مكان زادت الحرب اتقاداً وزاد انصارهُ مكافحةً وجهاداً ينسلون من كل صوب لنصرتهِ متحفزين للاستماتة في سبيل دعوتهِ تاركين غلالهم في البيادر والاجران طعاماً لاسراب الطيور وجيوش الجرذان ولبث القتال قائماً على هذه الحال ثلاث سنوات بلا مهادنة ولا انقطاع بين فريقين من بلدٍ واحد يتساحقون ويتطاحنون كانهم اقسموا ان يفني بعضهم بعضاً ويسلموا بلدهم للغريب او ينتصر احد الفريقين على الآخر

وكان اهمّ واشهر ما جرى في تلك الحرب الاهلية حصار مدينة بلباو حصرها انصار الدون كارلوس وشدوا عليها وثاق الحصر وكانوا مرابطين بينها وبين سان سيبستيان وجموعهم منتشرة في مضايق الجبل وسفوحهِ فكلما هجم عسكر الحكومة لمقاتلتهم ردّوهُ على اعقابهِ خاسراً مشتت الشمل . وكان قائدهم بطلاً مغواراً يدعى زوكاراغا وكان قائداً من قوّاد الجيش الاسباني فاعاد سيفهُ الى حكومتهِ وقال لها اعطي هذا السيف لغيري ليقاتلني بهِ اما سيفي انا فقد استلمتهُ من ملكي ومولاي . وكان عمر هذا البطل ثلاثين سنة وهو طويل القامة مهيب المنظر وكان قد قام بجيشهِ على حراسة الجبل كانهُ اسد رابض عند فريستهِ فلا يدعها تفلت من مخالبهِ الا بالموت . وكانت الدولة تجرّد عليهِ كل يوم جيشاً جديداً فيدحرهُ ويردّهُ على الاعقاب فعظم بذلك قدر الرجل ووقعت هيبتهُ في القلوب وصار ذكرهُ يروع ابطال الدولة كلما فلّ لها جيشاً وهزم خميساً عرمرماً فلا يقدمون عليهِ الا بقلوبٍ واجفة وعزائم واهية

اما قائد جند الدولة الاسبانية واسمهُ جاريدو فكان مرابطاً في هرناني وهي بلدة صغيرة بتلك الناحية وكان كلما رجع عسكرهُ مقهوراً عن المواقع التي يحميها خصمهُ يستشيط غيظاً ويلتهب قلبهُ حزناً على من يفقدهُ من ابطالهِ ثم يشتهي الموت اذا لم يكتب لهُ النصر ولم يتمكن من قتل ندهِ وانقاذ المدينة المحصورة

وفي ذات مساءٍ بينما هو مفكر حزين تارةً يطرق في الارض من شدة هواجسهِ وبلابلهِ وتارةً يصوّب نظراتٍ ملؤها التفجع والاسى الى جنودهِ الراجعة على قدم الهزيمة برز اليـهِ فتىً جميل الصورة وصوّب اليهِ بصراً احدّ من شفرة السيف الصقيل وقال لهُ بصوتٍ اجشّ هل تهب لي ما اطلبهُ منك اذا تكفلت لك بقتل عدوّك زوكاراغا . فقال لهُ القائد من انت يا من تخاطبني بهذا الكلام وهل مثلك يستطيع ان يفعل ما لا اقدر انا على فعلهِ وقد شابت ناصيتي في حروب مرّاكش وخرّق الرصاص جلدي حتى صار كالغربال . فاجاب الفتى انا احد سكان هذه الناحية واسمي جوان اراكويل رجلٌ لا يهاب الموت ولكني اقسمت ان احرز لنفسي ثروةً من المال . فقال القائد وهو يصعّد فيهِ بصرهُ اذا كنت من اهل هذه البلاد فلماذا لم تلحق بجيش الدون كارلوس . فاجاب لانني لا طمع لي في الدنيا ولا احبّ منها سوى امرأةٍ لو رأتها الشمس ما طلعت . فقال القائد وهل هذه المرأة خطيبتك . فتنهد واجاب حبذا لو كانت ولكنها ابنة زارعٍ غنيّ وانا فقير فلا اطمع في نيلها منهُ الا اذا صرت غنياً فاذا كانت حياة عدوّك تعدل الثروة التي اطلبها فانا لها . فقال القائد ان حياتهُ تسوى اكثر مما

تطلب لانها مقابل حياة الوف من عساكري الذين احبهم كاولادي فاذا ارحتني منهُ كان ذلك سبباً في حقن دمآء اولئك الابطال الشبان واغنيتك وجعلتك من اسعد الناس حالاً فودعهُ جوان وانصرف ومضت ايام دون ان يسمع عنهُ خبراً فحسب انهُ كلم مجنوناً . ثم تأهب لمفاجأة عدوّهِ في الليل واقتحام مضيق الجبل مستنيراً بوميض البارود ونيران المدافع

اما اراكول فذهب بعد مفارقتهِ للقائد جاريدو يتفقد اكناف المتاريس المتحصنة فيها عساكر الاعدآء وفي جيبهِ سكينٌ ماضية يطلقها كالرصاصة على الهدف بقوّة ساعدهِ المفتول . وكان ينام في الفلاة القريبة من محل القائد ليترصد فرصة الفتك بهِ على غِرّةٍ منهُ وقصدهُ في احدى الليالي الا انهُ بينما كان يدنو من المزرعة التي ينام القائد فوق اطلالها اطلق عليهِ العسس رصاصةً مرّت عند رأسهِ فعاد ادراجهُ آسفاً على ضياع الفرصة . وفي الليلة التالية التي نوى جاريدو ان يهجم فيها على عدوّهِ زوكاراغا كما تقدم اختبأ جوان في حفرةٍ تشبه وجار الثعلب وفي عزمهِ ان ينقضّ على فريستهِ في الساعة التي عينها جاريدو لهجوم عسكرهِ لان زوكاراغا لا بدّ ان يخرج في تلك الساعة لملاقاة خصمهِ فينصبّ عليهِ ويطعنهُ بسكينهِ الطعنة القاضية في معمعان القتال

فلما اقبل جيش جاريدو نشب عراكٌ شديد استقتل فيهِ الفريقان وكان الليل حالك الاديم والعساكر الملتحمة يقتل بعضها بعضاً غير عالمةٍ من تقتل حتى اذا بدا حاجب الصباح قفل كل فريقٍ عائداً الى مرابطهِ وقد دارت الدائرة على عسكر جاريدو ولكن زوكوراغا اصيب برصاصةٍ كسرت

عظم فخذهِ فبينما كانت عساكرهُ تحيي طلوع الفجر بهتاف النصر أُتي بهِ محمولاً على خشبة ووُضع امام المنزل الخرِب الذي ينام فيهِ فساد السكوت وعمّ الحزن والاسف وكان اراكويل قد أُسر في من أُسر من عساكر جاريدو واقام جماعةٌ من العسس يحرسون الاسرى وهو بينهم

وكان الضباط قد تألبوا حول القائد من كل جهة وجثوا امامهُ وهم ينظرون الجرح ويفحصونهُ ثم صاح احدهم بجرّاح العسكر ودار آخرون يفتشون عنهُ ثم رجع احدهم والدمع ينحدر من اجفانهِ وقال لقد وجدوا الجرّاح مقتولاً برصاصةٍ وجثتهُ فوق جثة جريح كان يعالجهُ في اثنآء القتال . فطاشت احلام الجماعة واشتد قلقهم على زعيمهم وخشوا ان يكون جرحهُ ذا خطر او ان ينزف دمهُ فيموت قبل ان يدعوا لهُ طبيباً من المرابط المجاورة . وحينئذٍ خطر لاحد الضباط ان يبحث عن طبيبٍ بين الاسرى فدلف نحوهم وصاح هل بينكم طبيب او جرّاح . فاخذ بعضهم ينظر الى بعض ولم يجب احد على سؤالهِ لانهم كلهم عساكر ليس بينهم من يعرف الطب . ثم صاح أوَليس بينكم من لهُ معرفة بتضميد الجراح . فبرز اراكويل وقال بلى انا . فقال لهُ الضابط اتبعني اذاً واخذهُ الى مكان القائد فنظر هذا اليهِ وبش في وجههِ وسألهُ عن سبب اسرهِ فاختلق لهُ سبباً وقال ان لي اقارب اعزّآء في مدينة بلباو هزني الشوق اليهم فخاطرت بنفسي وسرت الى المدينة ليلاً وكان القتال ناشباً فوقعت اسيراً بلا ذنب ولا جريرة لاني لست معكم ولا انا عليكم . فقال القائد انت تقول انك خبير بصناعة الطب فهل تستطيع ان تخفف آلامي وابرز لهُ فخذهُ وهي مضرّجة بالدم فنزع

جوان ردآءهُ ومزق قطعة من كم قميصهِ وصبَّ عليها بضع قطراتٍ من السائل السامّ الذي في خاتمهِ وفرك القطعة بها ثم دنا من القائد فمدَّ ساقهُ نحو الفتى وهو يئنّ ويتوجع فالصق الخرقة المبلولة بسائلهِ على الجرح وربطها برفادة . ولما فرغ من عملهِ قال لهُ القائد لقد عفوت عنك واطلقت سبيلك فاذهب بسلام مشكوراً على مروءتك وحسن صنيعك فلبس جوان ردآءهُ ومدَّ اليهِ القائد يدهُ فصافحهُ وحيَّا الضباط باحتشام ثم حيَّا رفاقهُ الاسرى ومضى يسير على مهل بلا خوفٍ ولا وجل

وفي ذلك المسآء تقدم جماعةٌ من العساكر الى القائد جاريدو في قرية هرناني وهم محيطون بالفتى جوان وكان القائد مشرَّد الفكر شديد الحزن والغمّ يناجي نفسهُ بالانتحار بسبب هزيمة الليلة البارحة التي اصابت جيشهُ فلما رأى جوان لم يحفل بهِ بل قال لهُ مغضباً ماذا تريد يا فتى أوَلست انت الذي اخبرت اعدآئي بميعاد هجومي عليهم . فاجاب اودّ ان اكلمك على خلوة . فأومأ القائد الى ضباطهِ بان ينصرفوا عنهُ واقبل على الفتى يسألهُ عن السرّ الذي يروم ان يفضي بهِ اليهِ فقال لقد قلت ان حياة زوكاراغو تسوى الثروة التي كنت ساعياً في الحصول عليها وقد جئت الآن لاطالبك بهذه الثروة لانني انجزت وعدي لك وبات عدوّك في قبضة المنون فانهُ اليوم يموت او غداً . فقال وكيف ذلك فقص عليهِ جوان كل ما فعلهُ من اولهِ الى آخرهِ . فبُهت القائد لهذا الخبر ثم قال وهل فعلت ذلك بالجريح بعد القتال او في اثنآء القتال فاجاب ذلك امرٌ لا تهم معرفتهُ بل المهم انني ارحتك من عدوّك فأنجز وعدك ووعد الحرّ دين . فقال القائد ان طلبك

حقٌّ وعدل ثم سأل عن منزل بيبا ودعا احد خدامهِ واملى عليهِ عنوان المنزل واومأ الى جوان وقال للخادم خذ هذا الشاب الى الغرفة السفلى حيث يقيم الحرس وغداً ابلغ القسيس ان يستعد لعقد زواج

فنام جوان تلك الليلة وهو تارةً يحلم بحبيبتهِ بين ذراعيهِ وتارةً بانهُ يسلم الى والدها المال الذي طلبهُ ثمناً لزواج ابنتهِ اي مهر امرأةٍ حية وثمن رجلٍ ميت. وفي الصباح اتت فرقة من العساكر يقودها ضابط واخذتهُ الى الساحة الكبرى في اكبر شارع من مدينة هرناني وكانت حافلة بالناس والشمس تلقي اشعتها الوهاجة على جدران الكنيسة وكانت العساكر مصطفة هنالك والقائد جاريدو واقف مع ضابطهِ قرب درج الكنيسة وكلهم بالملابس الرسمية والى بضع خطوات منهم وقفت بيبا كانها ملكٌ هابط من السمآء او قديسة نزلت من جنة الخلد وبجانبها والدها. ثم اتوا بالفتى الى امام القائد وهو تارةً ينظر الى العساكر المحتشدة وحرابها اللامعة وتارةً يتفرس في القائد والفتاة ووالدها فيراها تلقي عليهِ من ورآء اهدابها السودآء نظراتٍ غريبة. ثم قال القائد اين القسيس فاتى فالتفت القائد الى والد بيبا وقال لهُ ها ان جوان اراكويل الذي وعدتهُ بان تزوجهُ ابنتك قد حصَّل المهر الذي جعلت زواجهُ موقوفاً عليهِ فهل ترضى ان تزوجهُ بابنتك. فاجاب بصوتٍ اجشّ نعم. ثم التفت القائد الى جوان وقال لهُ هل ترضى انت ان تتخذ بيبا شيغاراي زوجةً لك. فاجاب بصوتٍ اودعهُ كل ما في جوارحهِ من حرارة الحب ولوعة الصبابة والوجد. نعم. والتفت القائد بعد ذلك الى الفتاة وقال لها وانتِ هل تقبلين جوان اراكول هذا زوجاً لكِ. فدنت

الفتاة من الفتى ورمقتهُ بالحاظها الفتانة واجابت لا . فتأوَّه الجمع المحتشد ورآء العساكر ثم رددت جوابها بصوتٍ عالٍ وقالت لا . لا . لقد اقسمتُ لك ايها الفتى انني لا اقترن بغيرك وسأبرُّ بقسمي فلا اقترن باحد ولكنني لا اقترن بنذلٍ جبان

فانقلبت سحنة الفتى عند ما سمع هذا الجواب ولاحت عليهِ لوائح الجنون فاخذ ينظر وهو لا يعقل . وفي تلك اللحظة سرى من طرف الوادي وسفوح التلال قرع اجراس بطيء متقطع يثير الشجون ويستبكي العيون وكان السمّ قد اودى بحياة البطل الاسباني زوكاراغا فقامت الاجراس تصلي على روحهِ وهي صاعدة الى ربها وتردّد صلوات عسكرهِ وأنين ضباطهِ فصاح جاريدو لقد مات زوكاراغا والتفت جوان الى بيبا وقال لها تبًّا لكِ يا خائنة . ثم قال القائد لجوان بصوتٍ هادئ ماذا تريد ان نفعل بالمال الذي استحققتهُ منا . فقال اعطوهُ للفقراء فاني لا اريد منهُ شيئاً ثم جثا امام القسيس وقال بصوتٍ عالٍ اسأل الله لي يا ابتِ الصفح والمغفرة

وحينئذٍ بدأت اجراس المدينة تقرع نغم الموتى كاجراس المعسكر البعيد وعمّ السكون تلك الناحية ثم نهض جوان والقى على بيبا النظرة الاخيرة وغاب بين صفوف العساكر ولم يكن بعد ذلك الا قليل حتى سُمع هزيمٌ كهزيم الرعد فنظروا واذا جوان اراكويل قد خرق الرصاص صدرهُ فهوى الى الارض يتشحط بدمهِ فلحق بقتيلهِ ودُفن الاثنان في يومٍ واحد